**المحاضرة رقم 11**

1. **النظرية الانتشارية:**

هي رد فعل مناهض للأفكار التطورية، برز لتفسير عمليات التغير الحضاري لتاريخ الإنسان، حيث افترض المناهضون للتطور، أن الاتصال بين الشعوب المختلفة ينتج عنه بالضرورة احتكاكا ثقافيا وعملية انتشار لبعض أو كل السمات الحضارية لمختلف الشعوب في إطار عملية تطورية، وهو ما ركز عليه رائد المدرسة الجغرافية الألمانية **فريدريك راتزال**، حول أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري[[1]](#footnote-1).

ومن أهم مبادئ الانتشاريين، أن انتشار أي عنصر يتطلب توافر الاحتكاك والوقت، مما يساهم ذلك في انتشار بعض العادات والتقاليد وغيرها من المظاهر الثقافية. بمعنى انتقال نظام أو نموذج ثقافي من مجتمع لآخر، مع الأخذ في الاعتبار الحواجز المانعة لهذا الانتشار والتي نجملها في الحواجز الطبيعية (العزلة في الصحراء أو الجبال أو البحار)، وحواجز اجتماعية خاصة بالانتشار الثقافي الديني والعقائدي.

كما تتوقف سرعة الانتشار على حجم المجتمع ومساحته ومدى تأثيره بالمجتمع الذي يحتك به، دون إغفال أنواع الأخرى من الانتشار، مثل الانتشار التعمدي أو المقصود (نشر ثقافة المستعمر على المحتل)، والانتشار بالصدفة بفعل التأثر بمجتمع آخر ولا نهمل أيضا أهمية العوامل النفسية في فرض حواجز الانتشار الثقافي، فهي من أهم الحواجز المقاومة لانتشار العناصر الثقافية، لكونها متوقفة على مدى تقبل البيئات الثقافية المعنية بالانتشار واستقبال الثقافة الخارجية. وفي المقابل، فهي ترتبط بالخصوصية الثقافية وأهمية الاستعدادات النفسية والاجتماعية[[2]](#footnote-2).

ومن أهم ما تركز عليه الانتشارية، أن نمو المجتمعات يتم بفعل الاحتكاكات الثقافية بين الشعوب، أكثر من التقليد والمحاكاة، وأن النمو مرتبط بالإبداع والإضافة والتعديل[[3]](#footnote-3).

ومن خلال أسلوب التتبع التاريخي لنشأة النظم الاجتماعية والثقافية، يؤكد الانتشاريون أن لكل نظام اجتماعي وثقافي بدايات وأصول انتشرت منه، وانتقلت إلى مختلف المجتمعات بفعل الاحتكاك والهجرة والتواصل بين الشعوب رغم فقدانها لبعض خصائصها عند امت ا زجها بثقافات الأخرى محلية[[4]](#footnote-4).

وفيما يتعلق بالسمات الثقافية، يعتبرها **فرانز بواس** الملقب بالثقافوي، مجرد ابتكارات وحيدة وحقائق عقلية مستقلة عن التطور الفيزيائي، مما جعلها تبتعد عن النهج التطوري مسافات[[5]](#footnote-5).

وتأسيسا على ذلك، يؤكد الانتشاريون أن لكل شعب تراثه الثقافي المميز له، وأن التطور الثقافي ليس خطيا، وليس بالضرورة أن تكون هناك حتمية لوجود علاقة في التطور بين التكنولوجيا والنظام الثقافي. فكثيرا ما يوجد نظاما ثقافيا متطورا، دون حضور تكنولوجيا متطورة. وهي الأفكار التي قادت الانتشاريين إلى اكتشاف الدوائر الثقافية الأولى المركزية وتتبع انتشارها من المركز. وعليه فالانتشار الحضاري يكون من وإلى المجتمعات. وهنا يبرز بوضوح أن السعي إلى إيجاد حلقات وصل بين الحضارات والعلاقات الترابطية والبحث في العوامل التاريخية، هو المنهج المفضل لدى الانتشاريين، والذي يقودهم حسب رأيهم إلى البرهنة على أن كل الحضارات صادرة عن مجتمعات معينة موحدة[[6]](#footnote-6).

لكن هذا التوجه الانتشاري، قد أهمل الفارق الزمني بين الحضارات، بحيث دخلت المدارس الانتشارية في حرب المصطلحات والألفاظ وتوغلت في التنظيم الذي أبعدها كثيرا عن الواقعية.

وعلى الرغم من الوجهة الإيجابية لهجرة الحضارات وانتقالها من مكان لآخر كمسلمة أسست عليها الانتشارية مقولاتها، إلا أنها تنطوي على وجهة سلبية الأخرى، تمثلت في تضييق الفرص لإنماء حضارات الأخرى بديلة مستقلة.

وتتلخص مدارس هذا الاتجاه في ثلاث مدارس: المدرسة البريطانية، والمدرسة الألمانية والنمساوية، والمدرسة الأمريكية.

فالمدرسة الأولى (البريطانية) عرفت بأحادية المنشأ، ومن أبرز ممثليها **إليوت سميث** **Grafton** **Elliot** **Smith** (**1871**-**1937**م)، الذي ركز أبحاثه على الآثار القديمة والهياكل البشرية. فحسبه أن أصل الثقافات هو الثقافة المصرية القديمة، وبتوفر الظروف الملائمة وزيادة الاتصالات، انتقلت وتوزعت إلى باقي المجتمعات الأخرى العالمية. وقد وضح أفكاره هذه في مؤلفه "هجرة الحضارات" عام **1915**م.

كما برز **وليام جيمس بيري** **William James Perry** (**1888**-**1949**م)مساندا لفكرة أحادية المنشأ في كتابه " أطفال الشمس،" والذي شرح فيه أن الحضارة المصرية هي مركز انتشار الحضارات، وفي نفس هذا الاتجاه، نجد الأنثروبولوجي البريطاني **وليام هالس ريفرز** **William Halse Rivers** (**1864**-**1922**م) [[7]](#footnote-7).

وبعد أحادية المنشأ، تظهر المدرسة الألمانية والنمساوية بفكرة تعددية المنشأ، والتي تعتقد في وجود مراكز متعددة لنشأة السمات الثقافية في العالم، بحيث تنشأ من خلالها سمات مشتركة. وحسبه أنه من هذه المراكز قد انطلقت الثقافات وانتشرت عالميا. وكلما اقتربنا من إحدى هذه المراكز، تزداد معها وحدة وكثافة هذه السمات. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه **فريدريك راتزل** **Fridirik** **Ratzel**(**1844**-**1904**) صاحب كتاب الجغرافية السياسية، والذي اعتمد فيه على المنهج الجغرافي التاريخي في تحليل فهم الثقافات وتطورها عبر الاتصالات والتبادلات الثقافية. حيث يرى أن الزراعة تعود أصولها للفأس أو المحراث، مما أسهم ذلك في تعدد أشكال الثقافة الزراعية في العالم. كما ترجع إليه فكرة الحدود البيولوجية التي تنتهي فيها عملية الاستعمار أين تنتهي مصالح تلك الدول. وأيضا صاحب فكرة الحدود الشفافة التي توجد فيها دولة داخل حدود دولة الأخرى لخدمة مصالحها دون استعمار مباشر.

ونجد رواد آخرين أمثال **كلارك دفيد ويسلر (1870-1947**)الذي طور مفهوم الدائرة الثقافية إلى المنطقة الثقافية، فالعالم حسبه مشكل من مجموعات ثقافية، تضم كل مجموعة عددا من الثقافات المتشابهة، وداخل كل منطقة مركزا تمثله ثقافة محورية تضم عددا من السمات المشتركة.

وفي نفس الاتجاه نجد **ألفريد لويس كروبر (1876-1960**)صاحب مفهوم الانتشار الثقافي في مؤلفه "انتشار المثيرات." وزميله **كلايد كلاكهون (1905-1960**) صاحب "تصنيفات مفهوم الثقافة" هو وزميله **ألفرد** **لويس كروبر** **(1876-1960**)**.**

فجميع رواد هذا الاتجاه قد أدخلوا مفاهيم الدائرة الثقافية لمجال الأنثروبولوجيا وانتشار الثقافات عبر المحيطات. أما المدرسة التي جمعت بين المدرستين، فهي المدرسة الأمريكية والتي أكدت على نشأة الثقافة من مركز جغرافي واحد، ولكنها شكلت مراكز متعددة وموازية لها، وأصبحت تتمتع بالقدرة على إنتاج أشكال ثقافية مختلفة تماما عن أصلها، بمعنى صرحوا بإمكانية ابتكار الثقافات الأخرى لسمات جديدة[[8]](#footnote-8).

ومن أهم روادها **فرانز أوري بواس** **Franz Uri Boas**. (**1858**-**1942**م) الذي تركزت فكرته الأساسية على أن الفهم المتكامل لجوانب الثقافة، يلزمه بالضرورة فهم أعمق لخصائص وسمات الشخصية الفردية من منظور سيكولوجي يرتبط بفهم وتفسير الصيغ الثقافية، فالثقافة هي الأساس في تشكيل شخصية الأفراد، وأن الفرد يخضع كليا للثقافة. الأمر الذي دفع بالعديد من الأنثروبولوجيين إلى نقد هذا التوجه الذي يجعل الفرد عنصرا متأثرا لا مؤثرا، ومن بين هؤلاء الناقدين، **إدوارد سبير** **Edward Sapir** الذي رأى في هذا الأمر إقصاء للفرد وتعصبا فكريا[[9]](#footnote-9).

كما أكد **فرانز بواس** على مبدأ الحتمية في دراسة الثقافات كأنساق متكونة من أجزاء متداخلة، لكونها تشكل ثقافة كلية. واستطاع بذلك أن يتحقق من أن العملية الانتشارية ليست نتاج أفعال أوتوماتيكية للاتصال شكلها وفي ها معنا في يغيرون الثقافي، فالأف ا رد عندما يصبحون جزءا من النمط الثقافي.

وسياقا على ذلك، يرفض **بواس** مبدأ اتساق التغير التطوري في كل المجتمعات، فالعناصر الثقافية هي كثيرة ومتشابهة وتوزع في مجتمعات مختلفة، وهذا التشابه هو بفعل الانتشار الثقافي. فحسبه أن معظم السمات الثقافية يمكن أن تتصف بالعالمية رغم عزلتها عن بعضها البعض، وأن لكل ثقافة خصوصيتها وسمات خاصة بها تتعلق بماضيها وحاضرها، فهي متميزة وفريدة في خصائصها[[10]](#footnote-10)**.**

وفي سنة **1923**، أثار كتابه "**عقلية الإنسان البدائي** "**The Mind of Primitive Man** ضجة كبيرة، حيث تم إحراق نسخ الكتاب من طرف النازيين في الثلاثينيات، وإلغاء شهادة الدكتوراه التي نإلىا **بواس** من جامعة كيل بألمانيا. وبعدها ظهر كتابه " **الفن** **البدائي** **" Primative Art**في سنة **1927**م، وكتاب "اللغة الثقافية **"Language and** **Culture** في سنة **1940**م. وهو التاريخ الذي اعتبره أغلب الباحثين بأنه تاريخ ظهور ونشأة الأنثروبولوجيا الثقافية، تماشيا مع إنجازات **بواس** في حقل الأنثروبولوجيا. لأن أفكاره هي بمثابة ثورة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكرد فعل قاس للعنصرية والفروق الفيزيولوجية، فكل الأف ا رد متساوون في كسب وإنتاج المعرفة، والتعاون هو نتيجة لعوامل تاريخية واجتماعية وثقافية[[11]](#footnote-11).

ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذه النظرية رغم أهميتها وقيمتها العلمية وشهرتها في الحقول النظرية المعرفية، إلا أنها أنقصت من الكيان الإنساني وجعلته مجرد مستقبل للمنتوجات الثقافية، دون التركيز على هذا الكائن البشري الذي بإمكانه الوصول إلى أوسع الصور الثقافية، فضلا عن تجاهلها للعوائق المادية والمعنوية التي تقف حاجزا للانتشار.

1. - حسين فهيم، **مرجع سابق**، ص 158، 159. [↑](#footnote-ref-1)
2. - حسن شحاتة سعفان، **دراسات في علم الإنسان**، دار النهضة العربية، القاهرة- مصر، 1973، ص 145. [↑](#footnote-ref-2)
3. - جاك لومار، **مرجع سابق**، ص 145. [↑](#footnote-ref-3)
4. - عاطف وصفي، **الأنثروبولوجيا الثقافية -دراسة ميدانية للجالية الإسلامية بمدينة ديربورن الأمريكية-**، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، د.س.، ص 43. [↑](#footnote-ref-4)
5. - جان فرانسوا دورتيه، **معجم العلوم الإنسانية**، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص 583. [↑](#footnote-ref-5)
6. - عاطف وصفي، **الأنثروبولوجيا الثقافية -دراسة ميدانية للجالية الإسلامية بمدينة ديربورن الأمريكية-**، **مرجع** **سابق**، ص 43. [↑](#footnote-ref-6)
7. - أسامة النور، أبوبكر شلابي، **الأنثروبولوجيا العامة- فروعها واتجاهاتها العلمية وطرق بحثها-**، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية، طربلس- ليبيا، 2002.، ص 63. [↑](#footnote-ref-7)
8. - خواجة عبد العزيز بن محمد، مرجع سايق، ص 53، 54. [↑](#footnote-ref-8)
9. - ميشيل مان، **موسوعة العلوم الاجتماعية**، ترجمة: عادل مختار الهواري، سعيد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر، 1999، ص 35. [↑](#footnote-ref-9)
10. - وسام العثمان، **المدخل إلى الأنثروبولوجيا**، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، 2002، ص 48، 49. [↑](#footnote-ref-10)
11. - علاء جواد كاظم، **الفرد والمصير-بحث في الأنثروبولوجيا الثقافية-**، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 2011، ص 34. [↑](#footnote-ref-11)